



الفلسفة التربوية للطب الإسلامي

(1)

د. هند عبد الله بشير¹ - دكتوراه في التنمية الإنسانية الفنية للطب و الطبيب

قبل البدء بتطوير الطب فلتأمل بالفلسفة التربوية للطب الإسلامي. يوضح لنا علم النفس الحديث أن هناك عدد من مستويات التغيير أو التأثير على الإنسان أو النظام أو المؤسسة أو المجتمع تدعى المستويات الذهنية المنطقية و هي :

- 1- مستوى البيئة: أين و متى يكون هذا التغيير،
- 2- مستوى السلوك: ما هو التغيير المطلوب ؟ ما الذي يجب فعله في ذلك الزمان و ذلك المكان كي يتم التغيير .
- 3- مستوى القدرة و المهارة : كيف يحصل التغيير ؟ كيفية استعمال القدرات و المهارات لإحداث التغيير.
- 4- مستوى المعتقدات و القيم : لماذا يراد التغيير؟ و هو أمر يتعلق بمعتقدات الإنسان و قيمه، لتبرير عملية التغيير.
- 5- مستوى الهوية: من الذي سيحصل له التغيير و ما هو دوره ؟

6- المستوى الروحي: و أخيراً بمن يتصل هذا التغيير، على مستوى العالم أو الكون ؟

و قد اكتشف هذه المستويات العالم الأنثروبولوجي غريغوري باتيسون عام 1972م

و إنّ القرآن الكريم يتحدث عن سنن التغيير التي توجه الظواهر الاجتماعية، فهو يشير إلى التغيير الإيجابي عند قوله تعالى: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) الرعد:11. و هو يشير إلى التغيير الاجتماعي السليبي عند قوله تعالى: ((ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) الأنفال: 53



و يشير القرآن الكريم إلى أن التغيير لا يكون مثيراً إلا إذا وجهته قوانين التغيير نفسه و إن أهم هذه القوانين: أن يبدأ التغيير في محتويات الأنفس، ثم يعقبه التغيير في الميادين الحياتية الخارجية المختلفة.

و محتويات الأنفس ذات معنى واسع، يشمل الأفكار و القيم و الثقافة و الاتجاهات و العادات و التقاليد كما يشمل التصور عن المنشأ و الكون و الحياة و المصير، و يشمل نوع الإرادات النفسية إن كانت تقتصر على إرادات بقاء الجسم البشري و متطلباته في الأمن و الاحترام و العدل و الإحسان.

بل إن القرآن الكريم يؤكد على أن التغيير لا يمكن أن يحدث إلا إذا قام القوم مجتمعين - و ليس فقط الأفراد - بتغيير أنفسهم لتنعكس آثار هذا التغيير على جميع أحوال هؤلاء القوم. و إن التغيير لن يثمر إلا إذا أحسن القوم التغيير التربوي و الفكري، حيث يتبع التغيير التربوي و الفكري التغيير المثمر في كافة المجالات الأخرى.

و يؤكد علم النمذجة الذي يعمل على نقل نموذج التفوق البشري في مجال ما لمن يحتاجه في نفس المجال، أن استنباط المعتقدات و القيم و العادات و الاستراتيجيات هي أهم مرحلة في عملية النمذجة بعد تحديد قدوات التفوق و دراستها التحليلية و المكثفة، لأنه بناء على التباين و الفروق أو الفجوة بينها و بين النموذج المحتاج غير المتفوق ستحدد احتياجات التغيير أو التطوير و سيعاد صياغة نموذج النجاح المطلوب بما يتناسب مع الخصائص الذاتية للنموذج المحتاج و ظروف بيئته الزمانية و المكانية.

و على ضوء ما سبق فإنه لمن المهم و قبل البدء بأي عملية تطوير للواقع العلمي عموماً و الطبي خصوصاً في الوطن العربي، أن نستفيد من أعظم تجربة تاريخية للتفوق و التميز العلمي و الحضاري الإنساني في نفس الوقت، أقصد الحضارة الإسلامية المعجزة التي يجمع العالم بأسره على تفردّها و فضلها الأصيل في تأسيس و تطوير المنهج العلمي بمفاهيمه و معاييرها التجريبية الدقيقة. هي ليست دعوة إلى الوراثة و التغني بأعجاد الأجداد في زمن تتسارع فيه عجلة التطور إلى الأمام و يتغنى فيه العالم القوي بريادته و سيادته، بل هي دعوة لاستنهاض موضوعي للهمم العربية لبدء التحرك العلمي الممنهج الذي يوازن حضارياً ما بين الأصالة و المعاصرة، و يساعد بإذن الله على اللحاق بقطار التطور و استرداد الريادة الحضارية الإسلامية، لأن العالم اليوم أحوج ما يكون إليها بما تحمله من خيرية إنسانية عامة.



و في هذا البحث سنتناول أهم المعتقدات و القيم التي كان يؤمن بها علماء و أطباء الحضارة الإسلامية و أهم الاستراتيجيات و السبل التي قاموا بها حتى تحققت عندهم الكفاءة الإيمانية و الأخلاقية مع الكفاءة العلمية و العملية الحياتية و بشكل متوازن و جميل جداً.

المعتقدات الروحية و الغيبية و أهم القيم و المبادئ عند علماء الطب المسلمين:

1- الإيمان بالله تعالى والتقوى: الإيمان بالله تعالى و كل غيب أخبر به، وحبّه و حبّ رسوله الكريم، و اتباع شرعه سبحانه و هديه صلى الله عليه وسلم و الانضباط به، و السعي الدائم لنيل رضاه تعالى، و اللجوء له و التضرع إليه في المسائل.

- فهذا ابن سينا يوضح في حديثه التالي عن اتصاله الدائم بالله تعالى حتى و هو يقوم في منهجه العلمي و العملي. فيقول: ((فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، و أرتبها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، و راعيت شروط مقدماته، حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، و كلما كنت أتحير في مسألة و لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع، و صليت و ابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، و تيسر المتعسر)).

- و هذا هو النجيب السمرقندي الطبيب الحكيم. و كان كغيره من ثمار الحضارة الإسلامية، حيث يمتزج عندهم العلم بالتقوى، و حيث يرى العالم أنّ ما حصله من علوم هو من فضل الله عليه، بعكس حضارات قديمة كانت ترى العلم منتزعا من الإله انتزاعاً، و ترى أن كل تعلّم جديد هو ارتفاع بالإنسان و انحطاط بالإله، كان النجيب السمرقندي يكتب في أول كتابه الأهم هذه العبارة الخالدة: (الحمد لله على نعمائه السابغة...).

2- التكاملية بين العلم و الدين و الأخلاق و الحياة:

- فهذا هو الرازي المعلم و المدرّس، فهو لم يكن عالماً فقط، بل كان إنساناً مخلوقاً من الدرجة الأولى. فقد اشتهر بالكرم و السخاء، و كان باراً بأصدقائه و معارفه عطوفاً على الفقراء و بخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، و يجري عليهم أحياناً الرواتب الثابتة و كان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو إبراء المرضى أكثر من نيل الأجور، و أن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء تماماً كاهتمامهم بعلاج الأمراء و الأغنياء، بل إن من شدة اهتمامهم بالفقراء ألف لهم كتاباً خاصاً سمّاه (طب الفقراء) وصف فيه الأمراض



المختلفة و أعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية و الأعشاب الرخيصة بدلاً من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة.

و من شدة اهتمامه بالأخلاق الحميدة ألّف كتاباً خاصاً بهذا الأمر سمّاه: ((أخلاق الطبيب)) يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب و المريض و بين الطبيب و الطبيب، و ضمّن كذلك بعض النصائح للمرضى في تعاملهم مع الأطباء.

و لعظمته الإنسانية قبل العلمية فقد ذكره الشاعر الإنكليزي القديم (جوفري تشوسر) بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه (أقاصيص كونتربري) و لعل من أوجه الفخر أيضاً أنه رغم تطور العلوم و تعدّد الفنون إلا أن جامعة بريستون الأمريكية مازالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصباً تذكاريّاً للرازي بالإضافة إلى صورته في شارع سان جرمان بباريس.

- و ها هو علي بن عباس المحوسي الطبيب البار الذي تناقل مؤرخو العلوم الطبية بكل إعجاب النزعات العلمية و الأخلاقية التي وضعها و كان علي بن العباس المحوسي رائداً حقيقياً في النواحي التطبيقية و النظرية و الأخلاقية في المجال الطبي.

3- قيمة العلم و الحقيقة العلمية (التفكير الحر التحليلي النقدي الاستنتاجي و المرأة في الحق و العلم):

- و من أهم الأمثلة على ذلك هو الرازي الذي انتشر في زمانه الطب اليوناني و الفارسي و الهندي و المصري نتيجة اجتهاد العلماء المسلمين في ترجمة كتب تلك الأمم. فقرأها جميعاً لكنه لم يكتف بالقراءة شأنه شأن جلّ العلماء غيره - بل سلك مسلكاً رائعاً من أرقى مسالك العلم و هو الملاحظة و التجربة و الاستنتاج.

فقد كان الطب اليوناني و هو أهم طب في تلك الفترة يعتمد في الأساس على النظريات غير المجربة، حتى أن أطباء اليونان عرفوا بفلاسفة الطب، فهم لم يخضعوا نظرياتهم للواقع إلا قليلاً، و لا يستثنى من ذلك أحد منهم حتى العمالقة أمثال جالينوس و أبقراط، لكن الرازي قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانون من قوانين العلم الأساسية عامّة و الطب خاصّة، قال: ((عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة و النظرية السائدة، يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييداً لمشاهير العلماء...))!!



و بذلك ينبغي الاستنتاج على ضوء الحقائق فقط و ليس على ضوء الافتراضات الجدلية. وكذلك ذهب إلى أبعد من ذلك في علميته حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على حيوانات القردة.

- و مثال آخر هو الطبيب ابن زهر، العبقرية الأندلسية الفريدة، التي أتت انجازاته ليس فقط في المجال النظري بل في الميدان العملي، حيث اعتمد بشكل مطلق على التجربة و التدقيق العلمي. و قد أكد ابن زهر لطلابه آداب و أصول التعلم و تحصيل العلم: ((وأن التجربة وحدها هي التي تثبت الحقائق و تذهب البواطل)) و كان ينصح طلابه أن لا يأخذوا دائماً ما يقرؤونه على غيرهم محمل الثقة و اليقين بل لابد من التجربة. و من أهم ما ميّز ابن زهر أنه لم يأخذ آراء الآخرين على أنها مسلمّات غير قابلة للتعديل، فإن آراءه المخالفة لجالينوس، و خاصة التشريحية لشاهدة على ذلك و قد ساعدت هذه الآراء الجريئة على التخلص من تهويمات الجالينوسية و من الخضوع المشين الذي طبع عصوراً برمتها بطابع الجمود المزري.

- وابن البيطار وأسلوبه العلمي الذي اتسم بالنزعة النقدية مع التزامه الكامل بالموضوعية و النزاهة العلمية، فقد ناقش في كتبه آراء السابقين عليه من العلماء و الأطباء و العشّابين، و نقدهم في عدة أمور نقداً بناءً و أوضح في مقدمة كتابه (الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية) -و الذي ألفه بعد دراسات عملية قائمة على التجربة و المشاهدة كأساس لدراسة النبات و الأعشاب و الأدوية - المنهج الذي اتبعه في أبحاثه قائلاً : ((ما صحّ عندي بالمشاهدة و النظر، و ثبت لديّ بالمخبر لا بالخبر أخذت به، و ما كان مخالفاً في القوى و الكيفية و المشاهدة الحسية و الماهية للصواب نبذته و لم أعمل به)).

- وابن النفيس الذي قدّم للعلم قواعد للبحث العلمي و تصورات للمنهج العلمي التجريبي نقض كلام أعظم طبيين عرفهما العرب في ذلك الوقت و هما جالينوس و ابن سينا و ذلك في وصفه للدورة الدموية الصغرى و اكتشاف أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبتوثة في داخلها و ليس في الدم الموجود في جوفه حيث كان شجاعاً في عرض آرائه العلمية المخالفة و التي كان من الصعب مخالفتها من قبل أي طبيب و لو كان بشهرة ابن النفيس، إلا أنه فعل ذلك و لم يخشى شيئاً.



4- العالمية و الانفتاحية الحضارية:

كان العلماء المسلمون منفتحين تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية (و ليس الدينية و الشرعية) على غيرهم من علماء الحضارات الأخرى، و كان العلماء المسلمون ينظرون إلى العلوم الحياتية كميراث إنساني عام يجب أن تستفيد في كل أمة من تجارب الأمم الأخرى، لذلك انفتح الأطباء المسلمون انفتاحاً غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات، و بعقولهم المفكرة و طاقاتهم الجبارة تطوروا من مرحلة الترجمة و النقل إلى مرحلة النقد و التحليل إلى مرحلة الابتكار و التأليف و قادوا البشرية لعدة قرون في مجال العلوم و أهمها العلوم الطبية.

كما أن الأطباء المسلمون لم يجعلوا الطب حكراً عليهم بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى ليدلوا بدلوهم و ليساهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم، فقد ظهرت أسماء نصرانية و يهودية مؤثرة في علم الطب مثل قسطا بن لوقا البعلبكي و أبي النصر المسيحي وغيرهم بل أنه كانت هناك عائلات نصرانية كاملة انصبّ اهتمامهم الأساسي على الطب و برعت فيه، و تبوأ مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية مثل عائلة آل بختيشوع النصرانية التي احترفت الطب لثلاثة قرون كاملة و كان لها مكانتها العظيمة عند خلفاء بني العباس.

و تكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين و مدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، و هو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله- عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيباً، من بينهم ثمانية مسلمون، و خمسة يهود و أربعة من النصارى، و سامري واحد!!

5- الأمانة و النزاهة الأخلاقية العلمية:

إن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة و النزاهة بحيث أنهم جميعاً كانوا دائماً ينسبون الفضل لأهله، و ما ادّعى طبيب مسلم أبداً اكتشافاً طبياً أو سبقاً علمياً نقله من عالم الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذي نقلوا عنهم، و أعطوهم التقدير الكافي و التبجيل الواضح.



- فابن البيطار في كتابه (الجامع في الأدوية المفردة) الذي يتجلى فيه أسلوبه في البحث و أمانته العلمية عند النقل (... و استوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصّه، و كذا فعلت أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصّه، ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية و المعدنية و الحيوانية ما لم يذكره، و وصفت فيها عن ثقات المحدثين و علماء النباتين ما لم يصفاه، و أسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها، و عرّفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها، و اختصصت بما تم لي به الاستبداد، و صحّ لي القول فيه، و وضح عندي عليه الاعتماد)).

و هذا مثال دقيق و تفصيلي عن النزاهة العلمية و كذلك عن التوازن ما بين حفظ حقوق الغير و تثبيت حقوق الذات، و هذا هو جوهر الاستفادة من الانفتاح، فلا تماهي مع ما ينتجه الآخرون و لا انغلاق و احتكار للمعارف الخاصة. (حفظ الحقوق للغير و للذات) .

6 - الكرامة والخيرية الإنسانية:

إن أهم ما امتاز به الأداء الطبي عند المسلمين زمن حضارتهم هو البعد الانساني الذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامة و السعي الحثيث لرفع المعاناة و الألم و الحرج عنه أياً كان هذا الانسان و أيا كانت معاناته.

و لم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته لأن الإنسان مكرم بطبعه الآدمي. و هذا البعد الإنساني العميق جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان و ليس على أنه (شيء) و لا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه بل كان التعامل معه دائماً على أنه إنسان في أزمة يحتاج إلى من يقف إلى جواره و المساعدة ليست طبية فقط بل نفسية و اجتماعية و اقتصادية و غيرها.. (كما أوضحنا سابقاً في الاعتقادات) و كان جميع المرضى بغض النظر عن دينهم أو لونهم أو مكانتهم يحظون بنفس الدرجة من الخدمة الراقية التي كانت جلّها تقدم مجاناً في نظام المستشفيات الإسلامية القائمة على الوقف و الذي جعل الفقير ينعم بالطمأنينة لكرامته الإنسانية فهو لن يحتاج في ظل هذه الرعاية المجانية الراقية إلى إراقة ماء وجهه أو يتسوّل ليتم علاجه! لذلك كانت توجيهات



الأطباء الكبار المعلمين لتلامذتهم أن يكون همهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم و ألا يميزوا ما بين مرضاهم .

إن النظرة الإسلامية الانسانية الرحيمة للمريض تعدت كل طبقات المجتمع في حضرها و قراها لتشمل نزلاء السجون فيمن أساءوا مجتمعتهم لأنهم في الأصل بشر و أنّ المهّم رعايتهم و إعادة الإصلاح لهم، و ليس إهمالهم و تحقيرهم و القضاء عليهم بالموت البطيء.

و من الجوانب الانسانية في تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم حرصهم على الآداب التي تحفظ كرامة المريض و تصون حيائه و تضمن سير مراحل الفحص و العلاج دون انتهاك لخصوصياته.

و قد أكّد العلماء المسلمون على الحرص على فرصة العلاج الصحيح للمريض المسلم و إن كانت عند غير الطبيب المسلم حفاظاً على صحته و الأمثلة التي ذكرت عديدة في محور العلم و الأخلاق على كيفية التعامل مع المريض.

7 - قيمة الاتقان (الدقة و التنظيم) في فكرهم و عملهم الطبي و إنتاجهم الكتي:

أولاً- في التأليف :

- فابن البيطار رتب مفردات كتابه (الجامع في الأدوية المفردة) ترتيباً أبجدياً مع ذكر أسمائها باللغات المتداولة في موطنها، و يقول (جورج سارتون) عن هذا الكتاب : ((وقد رتب ابن البيطار مؤلفة (الجامع في الأدوية المفردة) ترتيباً يستند على الحروف الأبجدية ليسهل تناوله، و قد سرد أسماء الأدوية لسائر اللغات المختلفة، و اعتمد علماء أوروبا على هذا المؤلف حتى عصر النهضة الأوروبية.

- و في علم الصيدلة و الذي ننسبه مع غيرنا و بلا أدنى حرج إلى المسلمين و نقول بكل فخر أنه اختراع عربي اسلامي أصيل. فقد ألفوا أول الكتب في العقاقير التي كانت غزيرة لدرجة قادت العلماء إلى أهمية التصنيف و التقسيم بناءً على معايير خاصة ارتآها الصيادلة أو المؤلفون، و من ذلك تصنيفات (الحاوي للرازي) و (الصيدلة في الطب للبيروني) و (كامل الصناعة لعلي بن عباس) و (القانون لابن سينا).

- ويمكن أن يكون أفضل شاهد عن التنظيم كصفة مشتركة لجميع المؤلفات الطبية للعلماء المسلمين ما كتبه مايروهوف المستشرق الألماني : ((راحت العلوم و لا سيما الطب، تنتقل بسرعة من أيدي



النصارى و الصابئة إلى أيدي المسلمين و معظمهم من سكنة بلاد فارس. ففي الطب صرنا نجد عوضاً عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة، موسوعات منتظمة صنّفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفاً دقيقاً و وصفت مقابل المعلومات الجديدة)).

ثانياً- في العمل :

- إن وصولهم إلى التخصصية في مجالات معيّنة تفرّغوا لها و برعوا فيها و طوروها و ابتكروا الجديد فيها
لهو أكبر دليل على حرصهم على الدقة و العمل المنظم الناجح.

فأبي القاسم الزهراوي قد أقرّ أن من يجب أن يمارس الجراحة هو الطبيب فقط و الشرط هو معرفته الدقيقة بالتشريح، و ها هو ينصح تلامذته بألا يقوموا بالجراحة ما لم يكونوا ملّمين بصغائر الأمور و كبائرها في التشريح و استعمال الأدوات الجراحية.

و الرازي المعلم العظيم الذي يعتبر أول من وضع منهجاً علمياً للتدريس يبدأ بالأمور النظرية ثم مباشرة العملية، تماماً كما هو سائد في كليات الطب اليوم، و كان في آخر السنوات الثلاث المقررة يعقد امتحانين لطلبة الطب الامتحان الأول في التشريح و الثاني في الجانب العملي مع المرضى و من كان يفشل في الامتحان الأول لا يدخل في الامتحان الثاني.

كما أن الرازي كان حريصاً في عمله الطبي على سؤال المريض عن كلّ ما يتعلّق بالمرض تقريباً من قريب أو من بعيد و كان يقول: ((إن الطبيب ينبغي ألا يدع مساءلة المريض عن كلّ ما يمكن أن يقوله عن علته)). و قد كان يضع المريض تحت الملاحظة الدقيقة المستمرة فكان الرازي في الدقة إلى درجة أذهلت من قرأ تعليقاته على الحالات المرضية التي وصفها .

8- قيمة التعاون العلمي بين العلماء والأطباء:

و الذي ساهم كثيراً في تطوّر الطب و مكتشفاته العلمية و التقنية فكان النقد البناء و التنسيق المشترك هو السمة السائدة للأطباء المسلمين .

- و خير مثال على ذلك العلاقة الوطيدة التي كانت بين ابن زهر الأندلسي و بين ابن رشد. فقد ألّف ابن رشد كتابه في الكلّيات، فقصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الجزئيات لتكون جملة كتابيهما



ككتاب شامل كامل في صناعة الطب، و هو كتاب (التيسير في المداواة و التدبير) و الذي يعتبر من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى. و علي بن العباس المجوسي المشهور بنزعاته العلمية و الأخلاقية التي تناقلها مؤرخو العلوم الطبية و الذي يحضّ فيها الأطباء على ضرورة العمل معاً و ضرورة مداولة أمور المرضى مع الزملاء و الأساتذة حدّاق الأطباء.

- و الكندي الذي تظهر عبقريته و تمرّسه في مجال الطب، في وصيته للأطباء إذ يقول: ((العاقل يظنّ أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة، و الجاهل يظن أنه قد تنهى، فتمتقته النفوس لذلك)).

9- قيمة الصبر و المثابرة:

إن الدارس المتتبع لسير العلماء المسلمين العظام ليس له إلا أن يعجب بالمدى العجيب لمقدّرتهم على المثابرة و الدأب في طريق العلم و الصبر و تحدّي كل التحديّات ليكون طريقاً مكلّلاً بالإنجازات العظيمة.

- فالرازي الذي أصبح مرجعية علمية لا مثيل لها ليس في بغداد وحدها و إنما في العالم كله، و ليس على مدى سنوات معدودة و لكن لقرون متتالية حتى كان معجزة الطب عبر الأجيال. و إن هذا المجد و النجاح لم يصل إليه مصادفة، و أنّ تفوّقه لم يكن ليكون إلا بالجهد الكبير و التعب و بذل التضحيات، و الإبداع لا يكون عشوائياً أبداً، إنما يحتاج إلى التخطيط و التدريب المستمر و المهارات العالية، و هكذا يمكن تلخيص حياة الرازي رحمه الله، فقد بحث الرازي عن العلم من كل مصادره، و اجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات ثم أتبع ذلك بتفكير عميق و تجارب عديدة و دراسة متأنية و دقيقة، حتى بدأ يعدّل بالنظريات التي يقرأها، و ينقد و يحلّل، حتى مكّنه ذلك من الوصول إلى الاختراع و الإبداع، بفضل سلوكه مسلكاً رائعاً من أرقى مسالك العلم أي الملاحظة و التجربة و الاستنتاج و ما يتطلب ذلك من عمل دؤوب و صبر كبير، لينتقل بعدها إلى نشر العلم و توريثه فكان المبدع و الدقيق في نهجه التعليمي العظيم، و لينتقل إلى مرحلة التأليف المبهّر للعالم بكثرتة و غزارته، حتى أحصى له ابن النديم في كتابه (الفهرس) 113 كتاباً، و 28 رسالة، و هذا عدد هائل، خاصة أنها جميعاً في مجال الطب. و كانت من أعظم مؤلفاته (كتاب الحاوي في علم التداوي) الذي هو موسوعة شاملة طبية لكافة المعلومات



الطبية المعروفة حتى عصره. و هو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، و كان مطبوعاً في خمسة و عشرين مجلداً!!

- وابن النفيس و مؤلفه الأعظم و الأشهر (الشامل في الصناعة الطبية) الذي يعتبر أضخم موسوعة طبية كتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، و كان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة، و هو ينوي أن يجعلها مرجعاً طبياً شاملاً، لولا أن وافته المنية بعد أن أعدّ منها ثمانين جزءاً فقط و هي تمثل صياغة علمية للجهود العلمية للمسلمين في الطب و الصيدلة لخمسة قرون من العمل و المتواصل.

- و ابن سينا الذي ترك نتاجاً ثراً غزيراً، فقد وضع ما يزيد على مائة مؤلف و رسالة في مختلف مجالات المعرفة و العلوم، عدّ بعضها موسوعات و دوائر معارف.

- و ابن أبي أصيبعة مؤلفه الأشهر (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي و بشهادة كثير من المؤرخين و المستشرقين بأنه الكتاب الأهم في معرفة أخبار الأطباء و لم يكن ليصبح هذا الكتاب منبراً لعلم الطب حتى اليوم لولا صبر مؤلفه و مثابرته و ذمته في ذكر كل من سيرة الطبيب و أعماله العلمية، و أهم إنجازاته في مجال العلوم الطبية بالإضافة إلى عرض معلومات رائعة عن الحياة الاجتماعية و العلمية في عصره بأسلوب سلس دقيق. و محفزة للقيام و النجاح بهذا الإنجاز العلمي التاريخي قوله مبيناً الأسباب التي دعت له لذلك ((رأيت أن أذكر في كتابي نكتاً و عيوناً في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء و المحدثين، و معرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم و أوقاتهم، و أن أودعه أيضاً نبذاً من أقوالهم و حكاياتهم و نوادرهم و محاوراتهم، و ذكر شيء من كتبهم، ليستدل بذلك على ما خصّهم الله تعالى من العلم، و حباهم من جودة القريحة و الفهم، فإن كثيراً منهم و إن قدمت أزمانهم، و تفاوتت أوقاتهم، فإن لهم علينا من النعم فيما صنعوه، و المنن فيما جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة و وصفوه، ما هو فضل المعلم على تلميذه و المحسن إلى من أحسن إليه)) .

فيا ليت نحن أطباء اليوم أن نجعل ما قاله ابن أبي أصيبعة الرسالة الحضارية لمهنتنا الإنسانية و نكمل حمل هذه الأمانة لنكون ممن يستحقون الفضل و التّعم.



10- قيمة الحكمة و الاعتدال و التوازن في العلم و العمل و أدوار الحياة:

- ففي العلم و العمل: كانت نظرتهم الشاملة الموحدة لجسم الإنسان مع عقله و نفسه و بيئته و إلى وحدة الطب في علومه و ممارسته و إلى تكامله مع العلوم و المعارف الإنسانية الأخرى.

- فبرع الأطباء المسلمين في التوازن ما بين موسوعيتهم و ممارستهم للتخصصية. و بالرغم من أنهم قد عرّفوا المرض بأنه حالة يكون فيها العضو في الجسم فاشلاً جزئياً أو كلياً عن أداء وظيفته، و معظمهم كتبوا كتابات تخصصية دقيقة عن مرض معين و كيفية علاجه، أو الأمراض التي تصيب عضواً معيناً، إلا أن هذه النظرية الجزئية الدقيقة بقيت في إطار نظرتهم الشاملة الأصلية للإنسان و المرض و أسبابه المتنوعة و ما يمكن أن يحتاجه من علاجات متنوعة.

فالفكرة التي دعا إليها أبو القاسم الزهراوي هي وحدة الطب و أكد و هو الجراح الكبير ضرورة معرفة ((أي جراح و تمكنه من علوم التشريح و أن هذا لا يكفي بل أيضاً يجب أن يكون متمكناً بالمعالجة الدوائية و الحميات الغذائية و فن العناية و الرعاية الشاملة للمريض فهذا لا يمكن أن يتجزأ...))

و علي بن عيسى الكحال في كتابه (تذكرة الكحالين) الذي وصفه الباحثون بأنه كتاب منهجي لطبيب مجرب مارس المعالجة و الجراحة، يطالعنا علي بن عيسى الكحال بتوضيح ماهية المرض و شرح طبيعته ثم يذكر أعراضه و علاماته و أوصافه و مميزات ثم ينتقل إلى أسبابه كاملة ثم يبدأ بعد ذلك كله بالمعالجات العامة المختلفة التي تطبق على كل الجسد لفائدة العين المرضية ثم يذكر أخيراً الأدوية الموضعية التي تطبق على العين. و هذا خير مثال على التكاملية الحكيمة ما بين الدقة التفصيلية و العامة الضرورية في نفس الوقت.

و نعيد و نذكر بكتاب (التيسير في مداواة و التدبير) لابن زهر الأندلسي الذي جاء تفصيلاً جزئياً دقيقاً لكتاب (الكليات في الطب) لابن رشد ((لتكون الأقاويل الجزئية في شفاء عرض من الأمراض الداخلية على عضو من الأعضاء، شديد المطابقة للأقاويل الكلية مع مزج العلاجات مع كل العلامات و إعطاء كل الأسباب)). تكاملية رائعة ما بين الشمولية و التخصصية.

- نظريتهم الشاملة هذه للعلوم جعلتهم يدعون و يتكبرون في علوم كالنبات و الصيدلة و الحيوان و الكيمياء و الجراثيم و الطفيليات و الجنين و توصلوا إلى تكاملية مبدعة بينها كانت النتيجة تطوّر لامثيل



له للطب في زمانهم حيث جسدت منهجاً عملياً متكاملًا حتى في كيفية الاستفادة و تسخير العلوم الفلسفية و الإنسانية الأخرى للطب، و الأمثلة كثيرة: و ذكرنا ابن أبي أصيبعة (تاريخ- طب) ابن سينا (شعر- طب) الرازي (موسيقا- طب) ابن طفيل (فلسفة- أدب- تشريح) حتى ان داوود الأنطاكي و الذي لقّب بالحكيم الماهر الفريد قد جمع في أحد مصنفاته (التذكرة) بين الطب و الحكمة، و في كتابه (كفاية المحتاج في علم العلاج) الذي جمع فيه بين معرفته الفلسفية و الطبية خارجاً عن الطب، نراه يقسّم العلوم و المعارف إلى أقسام، عزّفها و سمّاها و حدّد مدلولاتها و أغراضها و مراميها فكانت الفلسفة خير سبيل للعرض و الدقة و حسن التنسيق و التبويب.

و السموأل بن يحيى المغربي (العلوم الطبية، الهندسية، الرياضية) و الطبيب يحنشوع بن جبرائيل بن يحنشوع الذي نظّم ربط الطب بالفلسفة و أوضح أن الطب من العلوم التطبيقية البحتة و ليس له صلة بالفلسفة، إلا بما يتعلق بالمنطق و الاستقراء و الاستنتاج.

- و تتجلى الحكمة في فن التعامل مع المريض فيقول داوود الأنطاكي في مقام طب النفوس مخاطباً الطبيب: ((عليك بحسن الخلق، بحيث تسع الناس، و لا تعظم مرضاً عند صاحبه و لا يسرّ لأحد عن مريض، و لا تحبس نبضاً و أنت معبس، و لا تخبر بمكروه و لا تطلب بأجر، و قدم نفع الناس على نفعك، و استفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما في وسعك فإن ضيعته فأنت ضائع).

و تأكيداً لهذه النظرة الخاصة للطب الذي لم يعتبروه فقط من العلوم أو المعارف حيث اعتبروه فناً نفسياً انسانياً خاصاً يتطلب قيماً و مهارات خاصة جداً أخلاقية و تربوية كما زحرت بها كتب العلماء الطبية و خاصة العالم أبو الحسن علي بن رضوان في أبرز مؤلفاته (النافع في كيفية صناعة الطب) يتحدث فيه عن طريقة تعليم الطب بالنسبة للمتعلم ثم الصفات الواجب توافرها في التلميذ الراغب في دراسة الطب، و علامات كفاءة الممارس في صناعة الطب.

إذاً أدرك العلماء المسلمون أهمية التربية كأساس للمتعلم وإن العالم لا يكون قوياً و ناجحاً فقط بقوة معلوماته و كفاءة عمله بل أيضاً بقوة أخلاقه و حسنه و مهاراته و ذكائه في التواصل مع طلابه و زملائه و أهله و مرضاه.



- و من الأمثلة على مهارات التواصل و التخاطب مع المرضى ما برع فيه يوحنا بن ماسويه الذي لم يكن مجرد طبيب عادي، بل كان يتمتع بخفة النفس و التواضع و هو صاحب نكتة جيدة و بارعة، و من نواتجه أن رجلاً شكاً إليه علة كان شفاؤه منها الفصد، فأشار به عليه، فقال المريض: لم اعتد الفصد. فقال له الطبيب يوحنا: ((و لا أحسب أحداً اعتاده في بطن أمه، و كذلك لم تعتد العلة قبل أن تعتل، و قد حدثت بك فاختر ما شئت من الصبر على ما أحدثت لك الطبيعة من العلة، أو اعتياد الفصد لتسلم منها)). ما أروعها و ما أطرفها من حجة مقنعة!!

- و أما عن حكمتهم و توازنهم في أدوار حياتهم الانسانية المختلفة فخير نموذج عن ذلك هو السيرة التي كتبها الطبيب ابن رضوان عن نفسه و الذي تبين لنا انساناً قنوعاً مجتهداً منظماً، لم ينس العبادة و التأمل في ملكوت الله، و محاسبته لنفسه على أعمالها و الاهتمام بتغذية جسمه بالغذاء و الرياضة، و فعل الخير، و ترتيب الوقت بين مصالحه و مصالح أهله و منافع بيته.

و أن معظمهم كانت لهم ادوارهم المهنية الطبية و التعليمية، و كذلك كانت لهم مناصبهم الإدارية سواء في المشافي أو عند الدولة. لكن هذا الأمر لم يزددهم إلا قوة و إنجازاً بسبب قيمة التوازن التي يحرصون عليها و إعطاء كل شيء أو كل دور حقه دون ان يطغى أي دور على آخر.

فهذا ابن سينا فإنه لم يكد يصل إلى سن الثانية و العشرين حتى صار أشهر أطباء عصره و أسند إليه منصب رئيس وزراء شمس الدولة أمير ولاية همدان، و لم يكن لاشتغاله بتدبير الدولة أي أثر على إنتاجه و دراساته.

و الرازي بعد تميزه تقلد منصب مدير مستشفى مدينة الري فنجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، و سمع بأمره الكبير و الصغير و القريب و البعيد، حتى سمع به (عضد الدولة بن بويه) كبير الوزراء في الدولة العباسية، فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضد و هو أكبر مشفى في العالم في ذلك الوقت و كان يعمل به خمسون طبيباً، و طبعاً تفوق الرازي لا يمكن أن يكون عشوائياً بل كان نتيجة تعب و جهد و تضحية و تخطيط و تدريب و مهارة سبقت حياة الرازي كلها.



11- قيمة الطموح و الرسالة الحياتية و التفرد بترك أثر شخصي مفيد للإنسانية في الحياة: (أن تكون هاماً و لك دور عام هام)

و ما يتضمن ذلك من قيم عدة مثل الطموح الكبير منذ الصغر و الإحساس بالمسؤولية الذاتية و المبادرة و الإيجابية و التركيز و الديناميكية الحياتية و التطور المستمر، أو بالمختصر حسب ستيفن كوفي رائد علوم القيادة و الإدارة الحديثة في أمريكا (الفعالية و العظمة) أي اكتشافهم لصوتهم الحقيقي ثم إلهام الآخرين و مساعدتهم في تحقيق ذواتهم و اكتشاف أصواتهم أيضاً.

- و خير مثال على أهمية الطموح و إدراك الرسالة الحياتية الخاصة و الإحساس بالمسؤولية الذاتية اتجاهها و المبادرة و السعي لتحقيقها، هو ما بينه داوود الأنطاكي في بعض قوله عن أهمية طلب العلم: ((عار على من وهب النطق و التميز أن يطلب مرتبة دون المرتبة القصوى)). و يقول: ((الإنسان إنسان بالقوة إذا لم يعلم، فإذا علم كان إنساناً بالفعل)). فالإنسان لا يحقق إنسانيته إلا بالعلم و استعمال هذا العقل.

ثم يضيف: ((أنني عندما دخلت مصر، و رأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية، يمشي إلى أوضع يهودي للتطبيب، فعزمت على أن أجعله (أي الطب) كسائر العلوم، يدرس ليستفيد به المسلمون (جعل ذلك الاحتياج رسالته الخاصة) فكان ذلك وبالي و نكد نفسي و عدم راحتي من سفهاء لازموني قليلاً، ثم تعاطوا الطب، فضرّوا الناس في أموالهم و أبدانهم و أنكروا الانتفاع بي)). لذلك حرص في مؤلفاته الطبية على التركيز على رفع كفاءة الطبيب الخلقية و النفسية تماماً كالحرص على رفع كفاءته العلمية و المهنية.

- و كمثال على مساعدة الآخرين في لعب أدوارهم أيضاً و اكتشاف أصواتهم و الإضافة الخاصة المميزة لهم، هو ما كان يفعله الرازي مع تلامذته حيث كان يحضّهم على اتباع نهج الكتابة و التأليف، فكان يقول لهم: ((إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب و فهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتاباً يضمّنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأها)). حتى يستفيد اللاحقون بعلمهم و تأليفهم.

¹ البريد الإلكتروني: dr.m.hind@gmail.com